



فؤادك في سبيلنا أوقافك البشير فيك ينصرون بن صالح أبو زيد الشن

أول من ألف الكتب المصنفة في الإسلام

كان أول ما ظهر التبويب: في المصنفات الحديثية الأولى؛ لدى الأئمة الذين أجمع أئمة الحديث على أنهم أول من صنّف، واختلفوا في تقديم بعضهم على بعض في الأوليّة، وجميعهم من أئمة أتباع التابعين^(١).

وفي توثيق تاريخي مهمّ يقول الإمام علي بن المديني (ت ٢٣٤هـ)، وهو معروفٌ بتتبعه التاريخي لنشاط المحدثين العلمي: "نظرت فإذا الإسناد يدور على ستة" فذكر أئمة طبقة صغار التابعين: الزهري وعمرو بن دينار وقتادة ويحيى بن أبي كثير والأعمش وأبي إسحاق، ثم قال: "وآل علم هؤلاء الستة إلى أصحاب الأصناف ممن صنّف، فلأهل المدينة: مالك بن أنس [١٧٩هـ]، ومحمد بن إسحاق بن يسار [١٥٢هـ]، ومن أهل مكة: عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج [١٥١هـ]، وسفيان بن عيينة [١٩٨هـ]، ومن أهل البصرة: سعيد بن أبي عروبة [١٥٨هـ]، وحماد بن سلمة [١٦٨هـ]، وأبو عوانة [١٧٥هـ]، وشعبة بن الحجاج [١٦٠هـ]، ومعمّر بن راشد [١٥٤هـ]، ومن أهل الكوفة: سفيان بن سعيد الثوري [١٦١هـ]، ومن أهل الشام: عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي [١٥١هـ]، ومن أهل واسط: هشيم بن بشير [١٨٣هـ]"^(٢).

وفي تحديد أيهم أسبق تصنيفًا، فإن الأصل أن يكون الأكبر سنًا أسبق تصنيفًا حتى نجد الدليل على أنه مسبوق، وبناء على هذا الأصل سننظر في المصادر ونجمع الأدلة ونرجح بناءً عليها.

وسنرتب هذه النقول التاريخية الموثقة في المصادر الأصيلة وفق ترتيب أصحابها الزمني.

قال ابن جريج (١٥٠هـ): "ما دون العلم تدويني أحد" ورؤيت: "ما صنّف أحد العلم تصنيفي"^(٣)، وهذا نصٌّ على أنه لم يُسبق إلى مثل تصنيفه.

^(١) وقد جمع نصوص الأئمة المحدثين في بدايات التصنيف أد. حاتم الشريف في بحث حديث له منشور بمجلة المعيار بالجزائر مجلد ٢٤ العدد ٥١ عام ٢٠٢٠م، وعنوانه: "النصوص التراثية في بدايات التصنيف في السنة النبوية".

^(٢) العلل لعلي بن المديني ص (٧٦) بتصرف واختصار.

^(٣) المعرفة والتاريخ للفسوي (٢٥/٢)، العلل ومعرفة الرجال لعبد الله بن الإمام أحمد (٢٣٨٣).

"وكان ابن جريج خرج إلى باديتهم طرف مكة، فصنف كُتُبَهُ على ورق العُشْرِ^(٤)، ثم حَوَّلَهَا في البياض، فكان إذا قدم محدِّثٌ، حَمَلَ إليه كتابه، فيقول: أفدني ما كان في هذه الأبواب"^(٥). وهذا يعني أنه كان يكتب في صغره وقت الطلب، وأنه صَنَّفَ بعد أن سمع حديث أهل بلده أو أصول حديث أهل بلده، وقبل أن ينتهي من سماع جميع الأحاديث التي أراد أن يصنفها، فتصنيفه كان بعد أن أخذ أبواب العلم عن شيخه الأول عطاء بن أبي رباح سيد التابعين بمكة المكرمة وتلميذ حبر الأمة عبد الله بن عباس ووارث علمه، وسمع ما عنده فيها من روايات، وما عند شيوخه المكيين، ولعله كان يشعر بفوات الاستفادة من المحدثين الذين يردون مكة لأنه لا يجد ما يستحتم به على الرواية، ويمكن أن نقدر عمره حين ذلك بما بين العشرين إلى الثلاثين.

وكان ابن جريج ولد نحو سنة (٨٠هـ)، ولزم في أول أمره عطاء بن أبي رباح بعد أن أخذ القرآن وتعلَّم الفرائض، وأخذ عنه العلم والمسائل ثم صَنَّفَ بناء على هذه المسائل أصول مروياته، ثم أوقع ما يسمع بعد ذلك على هذا التصنيف، وكان لزم بعده الإمام الحافظ المكثر عمرو بن دينار، فالأقرب تاريخياً أن يكون تصنيفه وقع ما بين سنة ١٠٠-١٠٥هـ في أول تكونه العلمي، والله أعلم.

قال عبد الرزاق الصنعاني (ت ٢١١هـ): "أول من صنف الكتب ابن جريج، وصنّف الأوزاعي حين قدم على يحيى بن أبي كثير كتبه"^(٦)،

وهنا يؤكد عبد الرزاق الصنعاني أن شيخه عبد الملك بن جريج هو أول من صنّف العلم.

وذكر الأوزاعي ثانيًا، ولكن لم يذكره على أنه صنّف بالشام وإنما صنّف باليمامة أحاديث شيخه يحيى بن أبي كثير اليمامي الإمام الحافظ المكثر الشهير.

وبما أنه لم يذكر سعيد بن أبي عروبة البصري -الذي كان يُظنُّ أنه أول من صنّف العلم، وهو أكبر من الأوزاعي قليلا فإنه ينبغي أن يكون الأوزاعي قد صنف كتبه وهو صغير فسبق ابن أبي عروبة، لأن بينهما في السن نحوًا من (١٥) عامًا.

(٤) نبات عريض الورق مستديره يكون بأرض الحجاز، إذا كسرته خرج منه سائل أبيض كالحليب، وهو مشهور معروف اليوم عند العامة والخاصة.

(٥) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/٢٨١).

(٦) مقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١/١٨٤)، والجرح والتعديل له (٥/٢٦٦، ٣٥٧)، والكامل لابن عدي (١/٢٤١-٢٤٢)، والجامع للخطيب رقم (١٨٥٧).

وقد وجدت في تاريخ الأوزاعي رحمه الله أنه بلغ حدّ البلوغ في نحو سنة (١٠٠هـ) فسُجّل في الديوان بعد البلوغ، فكان بعثه إلى اليمامة^(٧) فلقى يحيى بن أبي كثير وهو إمامٌ مكثُرٌ بمسجد اليمامة، وجلس إليه، فكتب عنه أربعة عشر كتابًا، ثم لما استوعب ما عند يحيى قال له يحيى ينبغي أن تبادر لتدرك الحسن وابن سيرين، فذهب للقائهما وعمره نحوًا من ٢٤ عامًا تقريبًا، ففاته الحسن ووجد ابن سيرين (١١٠هـ) في مرض الموت، وهذا يعني أنه صنّف كتبه قبل ذلك، فيكون الأوزاعي صنّف كتبه التي سمعها من يحيى بن أبي كثير قبل أن يبلغ الـ (٢٤ عامًا)، مما يقوِّي أن يكون ابنُ أبي عروبة صنّف بعد الأوزاعي^(٨).

ويؤكِّد ذلك أنني وجدت في تاريخ سعيد بن أبي عروبة أنه لم يكن لديه كتب سماع وقت طلبه على خلاف حال ابن جريج والأوزاعي، وكان حديثه محفوظًا في صدره، فهو إنما صنّف محفوظاته بعد أن جمعها، فالراجح أنه صنّف أثناء جلوسه للتحديث، ويشهد لهذا أن كتاب المناسك له ميوَّبٌ على شكل سؤالات له على صيغة (وسئل عن...)، وهذا ما يؤيد كونه صنّف بعد أن كبر سنه على مسائل الفقه التي سئل عنها، فسبقه ابن جريج والأوزاعي.

وعلى ذلك فإن تصنيف ابن جريج كتبه كان ما بين سنة (١٠٠-١٠٥هـ)، وتصنيف الأوزاعي لحديث يحيى بن أبي كثير كان بعده وفيما بين (١٠٥-١١٠هـ)؛ وتصنيف ابن أبي عروبة كان بعد سنة (١١٠هـ).

وإنما أعتمد على كلام عبد الرزاق بن همام الصنعاني وأعطيه حقّ التقدير والعناية الخاصة لأنه: أقدم من وجدته شهيدًا على الأولوية، ثم هو تلميذ لابن جريج وللأوزاعي معًا، وأرخّ لتصنيف الأوزاعي بدقة (زمانًا ومكانًا)، وهو مع ذلك تلميذٌ ملازمٌ لمعمر بن راشد البصري قرين سعيد بن أبي عروبة وبلديه وأحد المصنّفين الأوائل، ومع هذه المرجحات هو أيضًا من أهل التصنيف وكتابه (المصنّف) من أقدم المصادر الأصيلة المصنفة على الأبواب؛ فتأريخه للتصنيف أولى بالاعتماد؛ لأنه يؤرخ لطبقة أدركها، وفي شيء هو به من أهل المعرفة والعناية.

وقد قال عبد الله بن الإمام أحمد سائلًا أباه: "أول من صنّف من هو؟ قال: ابن جريج وابن أبي عروبة، يعني ونحوهما، وقال ابن جريج: ما صنّف أحد العلم تصنيفي"^(٩).

^(٧) اليمامة كانت قديمًا حاضرة وادي حنيفة، وتقع حاليًا في وسط مدينة الرياض، بجوار حي منفوحة بينه وبين وادي حنيفة.

^(٨) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠٧/٧).

^(٩) العلل ومعرفة الرجال لعبد الله بن أحمد (٢٣٨٣).

وأحمد رحمه الله هو تلميذ عبد الرزاق الصنعاني، وهو هنا يؤرخ لأوائل من صنف ويحدد الطبقة، ويُشعر كلامه بأنّ ابن جريج عنده هو الأول.

وقد ذهب الحافظ الذهبي إلى أن سعيد بن أبي عروبة هو أول من صنف الأحاديث النبوية، فقال في ترجمته في (السير): "الإمام الحافظ، عالم أهل البصرة، وأول من صنّف السنن النبوية"^(١٠).

ولم أقف على أدلته على ذلك، وأظنه اعتمد على السنن فسعيد بن أبي عروبة أكبر من عبد الملك بن جريج بنحو سبع سنين، ووقفت له على ما يدل على أنه ظن أن الأوزاعي صنّف كتبه بالشام، فقد ذكر في (تاريخ الإسلام) أحداث سنة (١٤٣ هـ)، ثم قال: "وفي هذا العصر شرع علماء الإسلام في تدوين الحديث والفقہ والتفسير، فصنف ابن جريج التصانيف بمكة، وصنف سعيد بن أبي عروبة، وحماد بن سلمة، وغيرهما بالبصرة، وصنف الأوزاعي بالشام، وصنف مالك (الموطأ) بالمدينة، وصنف ابن إسحاق (المغازي)، وصنف معمر باليمن، وصنف أبو حنيفة وغيره الفقه والرأي بالكوفة، وصنف سفيان الثوري كتاب (الجامع)، ثم بعد يسير صنف هشيم كتبه، وصنف الليث بمصر، وابن لهيعة، ثم ابن المبارك، وأبو يوسف، وابن وهب. وكثر تدوين العلم وتبويبه، ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس. وقبل هذا العصر كان سائر الأئمة يتكلمون على حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة. فسهل ولله الحمد تناول العلم"^(١١).

وبناءً على ذلك فإن الاستدلال بالأصل المعتمد على تقديم الأكبر سنّاً معارضٌ بثبوت سبق الأصغر سنّاً إلى التصنيف، علماً أن فارق السنّ بين الثلاثة ضئيلٌ جدّاً لا يمكن أن يكون الاستدلال به قوياً ولو لم يسلم من المعارض، فكيف وقد قامت الأدلة المعتمدة على الأخبار الموثقة في المصادر الأصيلة على خلاف ذلك.

وعليه فإن التصنيف بدأ في نحو سنة (١٠٠-١٠٥ هـ) في مكة المكرمة على يد عبد الملك ابن جريج، ثمّ تلاه الأوزاعي فصنف باليمامة أحاديث شيخه يحيى بن أبي كثير (١٠٥-١١٠ هـ).

تبويب الحديث "منهجه، وتطوره التاريخي عند المحدثين"

أ.د. عبد الرحمن بن نويّع السلي

أستاذ الحديث وعلومه بجامعة أم القرى

اضغط هنا لتحميل البحث

^(١٠) في أول ترجمته في سير أعلام النبلاء (٤١٣/٦)

^(١١) تاريخ الإسلام للذهبي (٧٧٥/٣).